جامعة العربي بن مهيدي – أم البواقي–
كلية العلوم الاجتماعية والانسانية
قسم العلوم الإنسانية

السنة الجامعية: 2025 – 2026
المستوى: السنة الأولى ماستر
التخصص: تاريخ الغرب الإسلامي
المدة: ساعة ونصف

يوم : 2026/ 05/14

امتحان السداسي الثاني في مقياس علاقات الغرب الإسلامي مع السودان الغربي.

الإجابة النموذجية:

المقدمة: تُمثّل العلاقات بين الغرب الإسلامي والسودان الغربي نموذجاً تاريخياً بالغ الثراء لفهم ديناميكيات التفاعل بين الكيانات السياسية والحضارية في العالم ما قبل الحديث، غير أن المقاربة التحليلية لهذه العلاقات تستوجب تجاوز الوصف السطحي إلى طرح إشكالية جوهرية:

هل كانت هذه العلاقات تعبيراً عن شراكة حضارية متكافئة تحكمها المصلحة المتبادلة، أم أنها كانت تُخفي في بنيتها العميقة منطق الهيمنة والتبعية الذي أفضى حتماً إلى الصدام؟، للإجابة عن هذه الإشكالية، نقترح مقاربة ثلاثية الأبعاد :البنية، والمحركات، والتحولات.

أولا — بنية العلاقات: شراكة أم تبعية؟

أ) حجج الشراكة المتكافئة

يذهب فريق من الدارسين إلى أن العلاقة كانت في جوهرها تكاملية، إذ قامت على توازن دقيق بين طرفين يحتاج كلٌّ منهما الآخر:

- السودان الغربي يمتلك الذهب والعبيد والموارد الخام.
- الغرب الإسلامي يمتلك الملح والخيل والمنسوجات والشبكات التجارية المتوسطية.

وقد أفرز هذا التكامل اعتماداً متبادلاً جعل الاستقرار مصلحةً مشتركة لكلا الطرفين، وهو ما يُفسّر الطول الاستثنائي لمرحلة التعايش السلمي التي امتدت قروناً.

ب) حجج الهيمنة المُقنَّعة

بيد أن قراءة أعمق في بنية هذه العلاقة تكشف عن اختلال في موازين القوى لصالح الشمال:

- التحكم في ممرات التجارة :كانت القوافل تنطلق من المدن المغاربية (سجلماسة، تلمسان) وتعود إليها، مما جعل الشمال يتحكم في شرايين التبادل.
- تحديد الأسعار :الملح —السلعة الاستراتيجية— كان يُستخرج من مناجم تقع في منطقة نفوذ الشمال (تغازة، تاودني).
- الهيمنة الرمزية :انتشار الإسلام والمذهب المالكي واللغة العربية جعل معايير الشرعية السياسية تُستمَدّ من الشمال، إذ كان ملوك السودان يسعون إلى التشريع لحكمهم عبر علاقتهم بعلماء الشمال أو خلفاء بغداد.

الخلاصة التحليلية :العلاقة لم تكن شراكة متكافئة ولا هيمنة صريحة، بل كانت شراكة غير متماثلة؛ تكافؤ في الاعتماد المتبادل مع تفاوت في القدرة على تشكيل شروط التبادل.

ثانيا — المحركات: تشابك الأبعاد

أ) البعد الاقتصادي — المحرك الهيكلي

لا يمكن فهم أي محور من محاور هذه العلاقة بمعزل عن منطقه الاقتصادي، فالصحراء الكبرى لم تكن حاجزاً بل واسطة عقد بين اقتصادين متكاملين وقد أثبتت الدراسات الأثرية، لا سيما أعمال تيموثي غارارد (Timothy Garrard)، أن حجم التدفق الذهبي من السودان إلى الشمال كان يُغذّي مباشرةً ضرب العملة في المدن المغربية والأندلسية والتجارة المتوسطية.

ب) البعد الديني — المحرك الأيديولوجي

أسهم الإسلام في خلق لغة مشتركة بين الطرفين، لكنه في الوقت ذاته كان يحمل في طياته بذور التوتر:

- وظيفة التشريع :الإسلام منح الشرعية لملوك السودان الذين اعتنقوه، ومكّنهم من إدارة الفضاء التجاري بضمانات المؤسسة الدينية.
- وظيفة التوتر :الغيرة الدينية كانت تُحوّل أحياناً الخلافات التجارية إلى مواجهات مسلحة بغطاء ديني، كما حدث مع المرابطين.

ج) البعد السياسي — المحرك الظرفي

لم يكن للكيانات السياسية في الطرفين مشروع تمدد استراتيجي ثابت، بل كانت السياسة تتشكل بحسب موازين القوى الداخلية ومتطلبات التوسع الاقتصادي، وهذا ما يُفسّر التذبذب بين التحالف والصراع في مراحل مختلفة.

ثالثا — التحولات: من الشراكة إلى الهيمنة

مرحلة التأسيس (ق8 — ق11م): الاختراق التجاري الهادئ، كانت هذه المرحلة تتسم بالاختراق السلمي، التجار يحملون الإسلام دون إكراه، والملوك يسمحون بالتعايش بين الهوية التقليدية والإسلام الوافد.

مرحلة المرابطين (ق11م): أول صدام هيكلي، شكّل المرابطون نقطة تحوّل جوهرية، إذ حوّلوا العلاقة من التجارة إلى الجهاد، سقوط أودغست (1054م) ثم غانا (1076م)، كان أول تدخل مسلح منظّم من الشمال في الجنوب، وإن ظلّ محدود الأثر على المدى البعيد.

مرحلة الذروة (ق13 — ق15م): الشراكة الحضارية في أوجها، في عهد مملكة مالي بلغت العلاقات ذروتها الحضارية، رحلة مانسا موسى (1324م) كانت حدثاً دبلوماسياً وثقافياً واقتصادياً في آنٍ واحد، وقد أوضح المؤرخون مدى التأثير الهائل لهذه الرحلة على أسواق الذهب في المدن الإسلامية، كما غدت تمبكتو في عهد سونغاي امتداداً علمياً حقيقياً للفضاء الحضاري الإسلامي الكبير.

مرحلة الانكسار (1591م): بروز منطق الهيمنة، تُمثل الحملة السعدية على سونغاي اللحظة التي تكشّف فيها ما كان كامناً في بنية العلاقة من اختلال، وقد كانت دوافعها مُركّبة:

- الدافع الاقتصادي :السيطرة المباشرة على منابع الذهب والملح.
- الدافع السياسي :تعزيز مكانة السلطان أحمد المنصور في المنافسة العثمانية–السعدية.
- الغطاء الديني :ادّعاء حماية طرق الحج وصون الأراضي الإسلامية.

غير أن النتيجة كانت كارثية للطرفين: انهارت سونغاي، لكن المغرب نفسه لم يستطع إدارة هذا التوسع الشاسع، وغرق في متاهة الإدارة الاستعمارية للسودان.

الخاتمة :

العلاقات بين الغرب الإسلامي والسودان الغربي كانت نظاماً إقليمياً متكاملاً قائماً على توازن هش بين التكامل الاقتصادي والتراتب الحضاري والتوتر السياسي الكامن، وقد حمل هذا النظام في بنيته منطق تحوّله الذاتي، إذ كلما توسّع الاندماج الاقتصادي كلما تصاعدت إغراءات الهيمنة لدى الطرف الأقوى.

والدرس التاريخي الأعمق هو أن التبادل الحضاري لا يُلغي التفاوت في القوة، وأن العلاقات الإقليمية التي لا تُؤسّس على ضمانات قوية تظل رهينة للإرادة السياسية وميزان القوى، وهو ما يجعل هذا النموذج التاريخي ذا راهنية تحليلية تتجاوز حدود العصر الوسيط.